نظرية الحتمية القيمية بين الاسلمة والتأصيل

أ. احمد عبدلي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة –

كثيرا ما يستوقف القارئ عبارة استفهامية إشكالية للأستاذ عزي ابتدأ بها كتابه،"« دراسات في نظرية الاتصال: نحوَ تأسيس فكر إعلامي متميز»[1] ، وأظنها كانت مركز مشروعه الفكري من البداية : كيف نقرأ نظريتنا ؟ وواقع الحال أن هذا التساؤل المركزي عبر عنه الكثير من المتدخلين في الندوة على موقع الأستاذ [2]، كانشغال ظاهر أو ضمني حول ماهية النظرية وحدودها وامتداداتها وموقعها في إطار التراث الثقافي الإسلامي، أهي مشروع لأسلمة معرفة غربية المنشأ والتنظير، أم هو محاولة لتأصيلها؟ .وطبيعي أن تجابه النظرية بمثل هذه التساؤلات شأنها شأن المستجد في عالم الفكر والمعرفة ، فما بالك

---

[1] -عزي عبدالرحمن ، **دراسات في نظرية الاتصال: نحو تأسيس فكر إعلامي متميز** ،منشورات مركز دراسات الوحدة العربية

[2] -انظر النصوص الكاملة للندوة على موقع الاستاذ :www.geocities.com/dr.azzi

بأي مجهود فكري جديد يطرح في سياق حالة السباتية والتيهان الحضاري الذي تعيشه الأمة ، وفشل الكثير من المشروعات التحديثية النهضوية ؟. ولذا فلا غرابة في إنكارها أو عدم الاهتمام بها ، أو الاهتمام الجزئي النوعي من طرف جامعة معينة وهي سنة الأفكار التجديدية . وإذن كيف نقرأ ونفهم النظرية ؟ وفي أي من السياقين نضعها نصنفها ؟

سيحيلنا هذا الاستفهام إلى توسعة فضاء التحليل وإخراجه من المجال الإعلامي(كممارسة) إلى الفضاء الاتصالي (كنظام اجتماعي ثقافي) ، ومنه تعميما إلى باقي مناشط الحياة الاجتماعية ،على قاعدة الفرز الدقيق بين العام والخاص .

الإطار الإشكالي للموضوع :

طرحت منذ عقود إشكالية دراسة تحليل وفهم الظواهر الاجتماعية ، التي تقع في نطاق حياتنا الفردية والجمعية وفق رؤى المناهج والنظرية الغربية ، وهو ما أسهم في شروخ حادة –أحيانا- بين النظرية (المفسرة) وهذا الواقع ذي التشكل الثقافي والتاريخي المتمايز عنها ،بدءا من المصطلحات مرورا بالمنهج إلى البناء العام لأي بحث ، ولذا كثيرا ما طرحت حلول ومقاربات واجتهادات لرأب هذا الصدع .

من هذه الجهود من اقترح العودة إلى التراث والتنقيب فيه على قاعدة كفايته وكفاءته لاستكشاف معالم الظاهرة والقياس عليها لتأصيلها، ومنهم من فضل اختصار الطريق بتطبيع النظرية الغربية لمقتضيات هذه الوقائع الاجتماعية من خلال الاستفادة من قواعدها المنهجية باعتبارها إرثا إنسانيا مشتركا ، ومن هنا نشأ تيارا التأصيل والأسلمة Islamization of knowledge ومعناها :التعامل مع العلوم والمعارف المعاصرة إنسانية أو طبيعية من خلال منهج إسلامي إنها بديل حضاري لا يستهدف المسلمين فقط بل يستهدف إصلاح العالم اجمع ،...فهي

الجمع بين القراءتين ،قراءة الوحي المتلو (القرآن) والوحي غير المتلو (السنة النبوية) وقراءة الكون المنظور للخروج بصورة صحيحة شاملة وكاملة للكون والوجود والإنسان فيؤدي من خلالها الإنسان وظيفته الأساسية في خلافة الله في الأرض بعمارتها وتطبيق أوامره واجتناب نواهيه وتسخير السموات والأرض([1]).

وترجع بعض الروايات بداية التفكير في موضوع أسلمة المعرفة إلى الإمام بديع الزمان النورسي، الذي كان يعتقد :**أن ضياء القلب العلوم الدينية ونور العقل العلوم التجريبية**، و عموما شكل الموضوع هاجس وانشغال بحثي للعديد من الدارسين والباحثين أمثال عبد الحميد أبو سليمان ، طه عبد الرحمن، محمد عمارة ،عماد الدين خليل ،طه جابر العلواني... وقد أثمرت هذه الجهود ميلاد المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي أسس في أمريكا عام 1972 ، وقد اتخذ من أسلمة المعرفة برنامج عمل له .

ومع الشهادة بصدق المسعى عند أصحابهم إلا إن البعض شد إلى الماضي فأسر فيه ولم يستطع التخلص من ثقله المعنوي وأضفى عليه نوع من القداسة ، وهي حالة من اللاهوتية حيث ،يسقطون الجانب الموضوعي الذي يرتبط بمعرفة الواقع من حسابهم فيجعلون الدين أشبه باللاهوت يستلب الإنسان والكون وينفي الأسباب وقوانين الحركة وصيرورتها ويهمل كل السنن الاجتماعية والتاريخية والنفسية والاقتصادية التي يتفاعل معها الإنسان فينتهي الناس إلى فكر سكوني يلغي عامل الزمن من حسابه ويهمل الصيرورة التاريخية ([2]) ن والبعض الأخر مع شجاعته النقدية في تعامله هذا التراث والتميز بين

---

[1] -عبد الله الخطيب ، الجمع بين قراءتي الوحي والكون ،المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (الآداب والعلوم الإنسانية) ،المجلد الرابع ، العدد1 ،2003،ص6

[2] -طه جابر العلواني ،إسلامية المعرفة بين الامس واليوم ،منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط1،1996 ،ص17

عناصر ،الثوابت والمتغيرات ، إلا انه لم يكن يملك من الأدوات المعرفية والمنهجية وحتى الكفاءة اللغوية والعدة الثقافية لفهم هذا التراث فحام حول حوافه دون لبه .

أما أصحاب التيار الأخر فإن مجال المعرفة التي جرى أسلمتها بقي غالبيتها نظريات ومشاريع دون أن تجد لها امتداد على ارض الواقع بحكم أن هذا الواقع متشكل سياسيا وإيديولوجيا في بنى لا تستجيب لذلك أو قد ترفضه صراحة ولا تعترف به، وهذا حال الاقتصاد الإسلامي، الإعلام الإسلامي ...

ففي هذا المجال طرحت فكرة الإعلام من منظور إسلامي، وقد كانت بمثابة الفكرة الحل في وقتها أو إجابة عن انشغالات عميقة قلقة ، من قوة الدفق الهائل للمنتجات الثقافية الغربية عبر وسائل الإعلام الجماهيرية لفضاءات الثقافة العربية الإسلامية ،غير أنها وفي ظل غياب إستراتيجية تنظيرية تأسيسية منتجة للعدة المعرفية والمنهجية والأداتية، أصبحت عاجزة عن استكمال الحل ، واقتصرت بعد ذلك على محاولة ترشيد الممارسة الإعلامية، وحتى في هذا المستوى فالممارسة الإعلامية تحت هذا المسمى، في تقديري لا تعكس معالم نظرية ومنهجية واضحة بقدر ما تعكس توجهات المدارس الفكرية المؤدلجة والرساميل التي تقف وراءها ، ثم إن الإعلام منظومة متكاملة (الايدولوجيا ، السياسات العامة، الإطار التشريعي ،البينية التحية ، قيم وأساليب الممارسة) ويستحيل أن يوجد اقتصاد إسلامي في دولة أو إعلام إسلامي دون وجود دولة إسلامية فالجزء صنو الكل ؟

ويصف احد الباحثين الحال بقوله: ذلك أن الإعلام الإسلامي- على تنوعه، وكما يبدو لي- كان مثله كمثل مريض دخل إلى صيدلية وراح يستحوذ منها على حبة من هنا وشربة من هناك كي يعالج مرضاً يعانيه من دون أن يشخص المرض ويتعرف على مسبباته. وهذا فضلاً عن أن الأدوية التي

استخدمها بحد ذاتها ليست من صنعه لقد عجز الإعلام الإسلامي (الهادف) عن تحقيق ما يطمح إليه وما يرتجى منه من التغيير في مجتمع تتناوشه المؤثرات الإعلامية من كل صوب ، بينما استطاع الإعلام الهابط أن يتسلل إلى المجتمع الإسلامي لينخر في جسده ويخترقه بحجة الإمتاع والترفيه العارض البريء بداية، ثم استطاع شيئاً فشيئاً أن يستأثر بوقت المشاهد ويصرفه عن الإعلام الجاد الهادف، لما ركب في طبع الإنسان من ميل إلى الراحة والهبوط، يزينه له هوى النفس ونزغات الشياطين([1]).

النظرية ...هل تعيد النظر ؟

في إطار المناقشات المفتوحة وجه للأستاذ عزي سؤال عما إذا كانت النظرية المطروحة تندرج في إطار أسلمة المعرفة أم لا ؟ فأجاب : أما نقدي (لمشاريع الاسلمة)فيعود إلى أنني وجدت كتاباتهم تعتمد على الكثير من الجاهز من المعرفة و تضفي عليها طابع الأسلمة و في ذلك نوع من الكسل الفكري و ربما سطو على جهد الآخرين. كما أن هذا الطرح تحول مع الزمن إلى خطاب أكثر منه بمنهج مفتوح.

أما الاختلاف بين تقليد "أسلمة المعرفة" و نظرية الحتمية القيمية في الإعلام فيكمن في نظرنا في الآتي:

تعمل نظرية الحتمية القيمية في الإعلام على المزج بين قراءة "تجديدية" للمعالم التراثية و توظيف بعض الأدوات المنهجية التي تطورت في الغرب في دراسة الظاهرة الإعلامية المعاصرة في المنطقة العربية و الإسلامية، بينما يسعى تقليد "أسلمه المعرفة" على إضفاء الأسلمة على المعرفة الغربية القائمة

---

[1] -محمد عدنان سالم ، الإعلام الإسلامي ،انظر الرابط
http://www.fikr.com/articles_manager_44.htm

(في شتى المجالات) التي تنسجم مع "الرؤية الإسلامية،" وقد يكون قصد هذا التقليد النظر إلى هذه العملية من باب "بضاعتنا ردت إلينا" أو من باب "أن كل ما هو صالح من أصل تلك الرؤية" ولكن هذا التفسير المحتمل لا يعفي التقليد من النقد الذي أشرت إليه أعلاه، و حينئذ يكون الاختلاف منهجي.

أما الاختلاف الآخر فيتمثل في أن نظرية الحتمية القيمية في الإعلام تسعي إلى إضفاء الرؤية القيمية على البحث المتجدد في المجال المتخصص (أي الظاهرة الإعلامية) بينما ينشغل تقليد "أسلمة المعرفة" بالجاهز من المعرفة عند الغير و إضفاء صفة الأسلمة عليه، و مثلما يقول ابن نبي فالمهم ليس إثبات الأصح ولكن تجسيد الأصلح....عبد الرحمن عزي

تشكل نظرية **الحتمية القيمية** دفعا جديدا لنظرية الإعلام (الغربية تحديدا) ككل واستدراكا ثقافيا هوياتيا على مطباتها التحليلية التي تستثني القيمة الأخلاقية من الفعل والممارسة الإعلامية لدى المرسل والمتلقي، وهذا شيء طبيعي بالنسبة للنظرية الغربية المتولدة من رحم الثقافة الغربية التي نحت منحى جماليا، بينما نحت الحضارة الإسلامية منحى أخلاقيا وهنا وجه الاستدراك القاعدي، إذ أن إغفال الباحثين العرب والمسلمين لذلك أدى إلى أزمة المرجعية الحادة، فغالبية الدراسات التي أنجزت عن علاقة المتلقي بوسائل الإعلام خصوصا "التأثير" اعتمدت النظريات الغربية لتفسير سلوك التلقي وعالجت الظاهرة كما لو أنها واقعة في مجتمع غربي، غير أن نظريتنا الحالية تطرح مسألة الكفاءة والأهلية القيمية كصدر أو حاجز يمنع أصلا التأثير السلبي، أي يرشد عملية التلقي من مبدئها ، وبالتالي فهي تدفعنا إلى إعادة تعريف التأثير وتضمينه عنصر القيمة ؟ والذي يعبر عنه استاذنا بمسالة الموجب والسالب (القيمي) في مقابل الساخن والبارد (التقني) الماكلوهاني الذي أفضى إلى الحتمية التقنية.

-**ثانيا**: تشكل النظرية نقلة نوعية واعية من مجرد الإنكباب على التنظير للممارسة الإعلامية إلى البحث في تشكيل كتلة مرجعية معرفية **للإتصال** كفضاء للتفاعل الإجتماعي تتشكل وتنتقل بواسطته الثقافة ، وهذا يعنى البحث في ماهية وطبيعة التميز في بنية ووظيفة ومرجعية هذا الفضاء الرمزي ، وإذا لا غرابة في أن نجد الأستاذ ينتبه بدقة إلى موضوع الحواس باعتبارها تشكل نظام المدخلات والمخرجات في العملية ، فالإنسان إن كان متلقيا فهو إما سامع أو قارئ ، وإن كان مرسلا فهو متحدث أو كاتب ، ويبدو جهد الأستاذ في هذا الباب غير مسبوق ؛ فحسب علمي لم يحاول أي من الباحثين العرب تعريف الاتصال من هذه الزاوية ، (وحتى بالنسبة للنظريات الاتصالية الغربية لم تنتبه إلى ذلك إلا مع الدراسات الاثنوجرافية المتمخضة عن الدراسات الثقافية في إطار المراجعة العامة للعلوم العلم-اجتماعية على اثر الأزمة والعجز الحاصل في النظريات التقليدية).

لقد عاد الأستاذ إلى القرآن (الذي حفظه صغيرا بمسجد قرية عباد الشريف ببني ورثلان) ليستنبط ويستكشف ويميز بينها وكيف نقلها من المستويات البيولوجية إلى المستويات الإدراكية الواعية وكيف ووجهها توجيها دقيقا ، بما أنها المدخل الأساسي لبناء الخرائط الذهنية التي توجه السلوك في النهاية .

ويعد مقال «**الثقافة وحتمية الاتصال نظرة قيمية**» أهم مدخل لم يكتف الأستاذ من خلاله بمجرد البحث في موضوع الاتصال من زاوية قيمية بل تعداه إلى إعادة تعريف الثقافة ومراجعة المفاهيم الغربية .باعتبار الثقافة الفضاء الرمزي الذي تتشكل فيه الذات المجتمعية والفردية .وفي هذا المستوى تبرز أهمية ومعنى نظرية الحتمية القيمية ، إذ كلما أزداد ارتباط الحواس بالقيم

الأخلاقية كلما كان السلوك أكثر فاعلية وإيجابية وإرتقت المكانة ورشد السلوك، وأمكن الإنسان أن يتصرف بحكمة في أزمنته مثلا .

وفي هذا المستوى التنظيري تأخذ نظرية الحتمية القيمية ، قيمة وظيفية في الإطار الاجتماعي والحضاري الاشمل، حيث لا تغدو مجرد نظرية تعنى بتوجيه السلوك الإعلامي والاتصالي بل قاعدة أساسية من قواعد السلوك الاجتماعي العام ، ولازمة للبناء الحضاري ؛ فالنظرية تعالج مسالة إصلاح الخلل القيمي لدى الإنسان في ملفوظاته وأفعاله ، بما يحيله إلى أداة فاعلة في الحقل الثقافي الحضاري وينزاح من الهامشية التاريخية التي يعيشها إلى الفاعلية الحضارية التي سبق وأن عاشها ، لكن في إطار متجدد.

-تدعو النظرية إلى إعادة تثمين الوقت لأنه قاعدة التاريخ ، فبالنظر إلى طبيعة أزمنة الحداثة وما بعدها حيث الزمن أزمنة متداخلة ومتضاربة ومتغالبة، ويكمن خطرها في كون زمن الميديا قد يستوعب الزمن الاجتماعي (الاتصالي الثقافي وهو مع الأسف ما ضاع من التراث زمن العائلة مثلا)،كما قد يستوعب الزمن الديني القيمي العبادي، ويبدو أن أولوية النظرية تكمن في إعادة التوازن بين الأزمنة مع أفضلية الزمن القيمي العبادي والإنجازي مع ترشيد الزمن الإعلامي ليصرف في التكوين والتنشئة الثقافية والمعلومية الصحيحة ،ثالثا وهو ما احسب أنه الموضوع التالي في أجندة النظرية:علاقة القيمة بالمكان، أي تثمين الموجودات الطبيعية وتأهيلها واستغلالها استغلالا يتناسب مع مقتضيات الاستخلاف القائم على التسخير .

وأخيرا أزعم أن هذه النظرية تجيب جزئيا على انشغال تقليدي-ثنائية الأسلمة والتأصيل - لكن برؤية حداثية تجمع بين الأسلمة مع التفاعل الايجابي مع النظرية الغربية باعتبارها إرثا إنسانيا دون عقدة ، وبين التأصيل الذي يستقرأ النصوص التراثية بأدوات فكرية ومنهجية عالية المستوى بعضها

خاصة تمثل استجابة لاشتراط لازم من التراث إذ لا يمكن تفكيكه وتأويله إلا بأدوات مشاكلة للتيْ بني بها ، وبعضها خارجة عنه دون أن تخل به ما دامت خالية من الأدلجة .

على أن صاحب النظرية لم يعلنها صريحة في أي من الاتجاهين ولكنها دعوة ضمنية لتجنب مأزق التصنيف والفرز غير المجدي ، بل البحث الإبداعي المنتج الذي يحول طاقاتنا من الحالة الكلامية السجالية إلى الحالة الانجازية وفي ذلك مسار طويل .